في الكتب

جولة في ربوع الشرق الأدنى

اذا تمثلت الأستاذ ثابت ، فلست أتمثل واحدا من الرجال وكفى ، وإنما أتخيل طريقة بأسرها من طرائق العيش ، وأسلوباً شاملا فى فلسفة الحياة ، أخذ يتبلور ويتركز ، حتى تجسد فى أستاذنا ثابت ، فمن الناس من يقضى حياته التى كتب له أن يحياها على ظهر الأرض ، فى بلد واحد ، بل فى دار واحدة ، بل فى مكان بعينه من الدار . وأجرأ ما يطرأ على حياتهم الضئيلة الآسنة من ارتحال ، انتقال من غرفة فى الدار الى غرفة أخرى كما يقول جولد سمث

وهذا رحالتنا ثابت أراد ان يحيا ! هوذا قد وازن بين حركة الحياة وجمود الموت ، ووازن بين الأيام تدور ، وتدور حول صورة بعينها آسنة راكدة ، وبينها تزخر باسباب الحياة ، فلم يتردد فى الاختيار .. وأخذ يضرب فى مناكب الأرض ، يجوس أنحاء اوربا ويخرج للناس وصفا لجولته فى ربوعها ، ثم يجوس فى أنحاء آسيا ويذيع فى الناس وصفا لجولته فى ربوعها ، ثم يجوس فى أنحاء أفريقيا وينشر بين الناس وصفا لجولته فى ربوعها ، وهاهوذا فى الصيف الماضى ، قد جال فى أرجاء الشرق الأدنى وأخرج للناس هذه الجولة الجديدة ، التى نحن بصددها

وان كان القراء قد أمتعهم ما طالعوه من مشاهدات رحالتهم فى اوربا وآسيا وافريقيا ، فكم تمتعهم قراءة هذه الرحلة الاخيرة التى لم تكن بين أقوام من غرب بعيد ، تربطنا وإياهم صلات مهما تكن - فهى على شىء من الضعف والوهن ، ولم تكن بين أقوام من شرق أقصى لا نكاد نصلنا بهم الا روابط الانسانية الواحدة والعصر الواحد ، وانما هى رحلة بين شعوب توشجت بيننا وبينها أواصر من الرحم والقربى هيهات أن تقوى على فصمها الأيام ، وهى كما يقول الأستاذ المؤلف حقا فى المقدمة « أقطار تربطنا بها روابط وثقتها أواصر التاريخ والاجتماع والدين . وزادتها رسوخا صلة رحم قديمة وإخلاص عن عطف متبادل تذكى نارها رغبة مشتركة فى النهوض ، وطموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة غلت ولا تزال تئن تحت أخطاء أبنائها وتهم الطامعين فيها »

قرأت كتاب الاستاذ ثابت ، فكنت أتابعه فى رحلته بلدا بعد بلد ، وقطرا فى أثر قطر ، جبت معه - على حسابه - فلسطين وسوريا وتركيا والعراق وفارس وافغانستان ؛ وكنت أقف معه هذه الوقفات التى تطول حينا وتقصر حينا ؛ أمام روائع الآثار القديمة المنتثرة هنا وهناك فى ربوع الشرق الأدنى ، والتى تثير فى النفس شتى العواطف والذكر . فى المسجد الاقصى ، عند مبكى اليهود ، فى كنيسة القيامة ؛ على جبل الزيتون ، فى ايوان كسرى ، فى الحدائق المعلقة ، فى ضريح الامام الرضى ، وغيرها ... كما خالطت وإياه هذه الطوائف المختلفة ، فعرفتها معرفة حية بعد أن كانت مجرد أسماء تتردد : السامريون ، الدروز ، الشيعة ، الصابئة ، اليزيديون عبدة الشيطان وغير هؤلاء

وللاستاذ ثابت مقدرة ممتازة فى الوصف الدقيق لما يشاهده باسلوب سلس فتشعر كأنما هو يتحدث اليك عن رحلته حديثا حلوا شيقا ، بحيث يترك فى ذهنك صورة قوية ، كثيرا ما تميل بك الى العقيدة بانك قد رأيتها رأى العين ، ولا تكاد تقتنع بانها صورة قلبية فقط قرأتها عند الاستاذ ثابت !

كنت أشعر بحلاوة الحديث ، واندفع مشوقا الى القراءة متنقلا من بلد الى بلد . . . . ولكن لم يستطرد معى هـذا الشعور فى كل أنحاء الكتاب ، فكأنما عز على الاستاذ ثابت أن يمتعنا متعة محضة خالصة ، دون أن يصدمنا فى الحين بعد الحين صدمة عنيفة ، يضيق بها الصدر ، ويود عندها القارىء أن لم يكن ذلك الكلف على تلك الشمس المشرقة الضاحية ! وإنما أعنى بتلك الصدمات هذه الحقائق العلمية التى ركزها فى صفحات قليلة ، نثرها فى أركان الكتاب كأنما يريد بها أن يبلو صبر القارىء على القراءة وجلده على احتمال العلم الصارم . وكم كنت أحب — وليس الاستاذ ثابت بالطبع مكلفا بأداء ما أحب — أن يكون الكتاب كله من ذلك النوع الذى لا أستطيع أن أقرأه الا فى كتاب الرحالة الذى شاهد ورأى ،

وقد يكون من الأثرة أن أغتصب الحكم لنفسى دون القراء جميعا ، فهاهو الكتاب بين أيدى القراء فلا حاجـة للاقتباس أو ايراد الشواهد .

ومع أن الاستاذ قد أخذ علينا طريق هذا الاعتراض انه انما أراد بمزج هذه بتلك ، أن يكون الكتاب أداة ثقافية بجانب اللذة والمتاع ، فعلى هذا الاساس من وجهة النظر توافقه فى شىء من القلق . وبعد ، فقد اشرك الاستاذ الرحالة قراء معه فى حياته الزاخرة ، وكان عليه وحده الغرم ، غرم الارتحال وعناء التسطير ، ولقرائه الغنم ، غنم الفائدة والمتاع السائغ .

زكى نجيب محمود